مقال مختصر يعالج أزمة (معارك الانتماء) في ظل تسلط الظالمين على أهل الحق في مرحلة الاستضعاف

أَنَا سُنِّيٌّ أَوَّلًا

أبو زيد العتيبي –عفا اللّه عنه-

أنا سُنِّيٌ أولاً

كَتَبَهُ

حَمَدُ أَبُو زَيْدٍ العُتَيْبِيِّ

–عَفَا اللّهُ عَنْهُ–

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ مِنَ المَعَارِكِ الفِكْرِيَةِ الَّتِي تَنْبَعِثُ عَنْهَا أَسَالِيبُ قَمْعِيَّةٌ، وَتَفْتِيتِيَّةٌ، وَاسْتِئْصَالِيَّةٌ هِيَ: (مَعَارِكُ الانْتِمَاءِ).

فَإِنَّ مِنَ الحَقَائِقِ الاسْتِقْرَائِيَّةِ لِلْوَقَائِعِ التَّارِيخِيَّةِ أَنَّ الْمُسْتَضْعَفَ تَحْتَ قَهْرِ الظَّالِمِ تَذُوبُ قِيَمُهُ، وَثَوَابِتُهُ. بَلْ وَمُصْطَلَحَاتُهُ، فِي مَفَاهِيمِ وَقَنَاعَاتِ الظَّالِمِ الْمُتَسَلِّطِ.

وَأَصْلُ هَذَا (الانْسِلاخِ) –عِنْدَ الْمُسْتَضْعَفِ– نَاشِئٌ مِنْ ضَعْفِ انْتِمَائِهِ لِثَوَابِتِهِ الدِّينِيَّةِ، وَقِيَمِهِ الأَخْلاقِيَّةِ، وَذَلِكَ لِضَعْفِ إِيمَانِهِ وَضَعْفِ وَلائِهِ.

وَحَقِيقَةُ هَذَا المَرَضِ (عُقْدَةِ ذَوَبَانِ الشَّخْصِيَّةِ) تَنْشَأُ عَنْ أَسْبَابٍ مِنْهَا:

أولاً: عَدَمُ فَهْمِ حَقِيقَةِ العِزَّةِ.

اعْلَمْ —وَفَّقَكَ اللّهُ لِلْعِزِّ— أَنَّ الأَصْلَ: (أَنَّ العِزَّةَ للّهِ —تَعَالَى—)، فَتُطْلَبُ مِنْهُ بِمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ وَالانْتِسَابِ إِلَيْهِ، قَالَ —سُبْحَانَهُ-: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً}[فَاطِرٌ: ١٠].

وَطَاعَةُ اللّهِ —تَعَالَى- تَكُونُ (بِالإِيمَانِ) الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ (سُنَّةُ الرَّسُولِ الكَرِيمِ)، (وَسُنَّةُ صَحَابَتِهِ المُؤْتَمَنِينَ)، كَمَا قَالَ —عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ بَعْدِي" (صَحِيحُ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَصَحِيحُ سُنَنِ ابْنِ مَاجَه).

فَالعِزَّةُ تَكُونُ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَحِيحَةِ المُتَضَمِّنَةِ للإِيمَانِ بِاللّهِ —تَعَالَى— وَالإِيمَانِ بِرَسُولِهِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ —رَحِمَهُ اللّهُ-: "(العِزَّةُ)، (وَالعُلُوُّ) إِنَّمَا هُمَا لأَهْلِ الإِيمَانِ الَّذِي بَعَثَ اللّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ. وَهُوَ (عِلْمٌ، وَعَمَلٌ، وَحَالٌ).

قَالَ –تَعَالَى–: {وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فَلِلْعَبْدِ مِنَ العُلُوِّ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ.

وَقَالَ –تَعَالَى–: {وَلِلّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} فَلَهُ مِنَ العِزَّةِ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ، فَإِذَا فَاتَهُ حَظٌّ مِنَ العُلُوِّ وَالعِزَّةِ فَفِي مُقَابَلَةِ مَا فَاتَهُ مِنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ عِلْمَاً وَعَمَلاً ظَاهِرَاً وَبَاطِنَاً" (إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ: ٢/١٨١).

فَلِهَذَا أَنْتَ سُنِّيٌّ أَوَّلاً، وَاسْتَقِمْ عَلَيْهَا أَبَدَاً، وَعِنْدَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ عَزِيزَاً، مَنِيعَاً، مُتَرَبِّعَاً عَلَى أَرُومَةِ الشَّرَفِ فَكُنْ (سُنِّيَاً) فِي القَوْلِ وَالانْتِسَابِ، وَفِي العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَفِي الظَّاهِرِ وَالبَّاطِنِ.

فَالْمُسْتَضْعَفُ إِذَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَمْ تَذُبْ هُوِيَّتُهُ (السُّنِّيَّةِ)، وَهُوَ يُرَدِّدُ: "إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالِيتَ وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيتَ"؛ لأَنَّ القُوَّةَ فِي الحَقِيقَةِ قُوَّةُ القَلْبِ.

"وَالمَقْصُودُ أَنَّ بِحَسَبِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ تَكُونُ العِزَّةُ وَالكِفَايَةُ وَالنُّصْرَةُ، كَمَا أَنَّ بِحَسَبِ مُتَابَعَتِهِ تَكُونُ الهِدَايَةُ وَالفَلاحُ وَالنَّجَاةُ،

فَاللهُ سُبْحَانَهُ عَلَّقَ سَعادَةَ الدَّارَيْنِ بِمُتَابَعَتِهِ، وَجَعَلَ شَقَاوَةَ الدَّارَيْنِ فِي مُخَالَفَتِهِ، فَلأَتْبَاعِهِ الهُدَى وَالأَمْنُ، وَالفَلاحُ وَالعِزَّةُ، وَالكِفَايَةُ وَالنُّصْرَةُ، وَالوِلايَةُ وَالتَّأْيِيدُ، وَطِيبُ العَيْشِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلِمُخَالِفِيهِ الذِّلَةُ وَالصَّغَارُ، وَالخَوْفُ وَالضَّلالُ، وَالخِذْلانُ وَالشَّقَاءُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ " قَالَهُ ابْنُ القَيِّمِ —رَحِمَهُ اللهُ—.

وَمِمَّا يُضْعِفُ هَذِهِ العِزَّةَ مُزَاحَمَةُ الانْتِسَابِ لِلسُّنَّةِ، كَالانْتِسَابِ لِكُلِّ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ: مِنْ قَوْمِيَّةٍ، أَوْ قَبَلِيَّةٍ، أَوْ حِزْبِيَّةٍ، أَوْ طَائِفِيَّةٍ.

فَمَنْ طَلَبَ العِزَّةَ عِنْدَ أَعْدَاءِ اللهِ —تَعَالَى— وَمِنْ غَيْرِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ فَقَدْ تَطَلَّبَ عَدَمَاً مَحْضَاً، وَسَرَاباً لا حَقِيقَةَ لَهُ، كَمَا قَالَ —سُبْحَانَهُ—: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}[النِّسَاءُ: ١٣٩].

فَمُنْتَهَى الخِذْلانِ أَنْ تُطْلَبَ العِزَّةُ مِمَّنْ يُعَادِي السُّنَّةَ وَيُحَارِبُهَا بِسُلْطَانِهِ وَمَالِهِ، وَيَقْهَرُ حَفَظَتَهَا، وَحَمَلَتَهَا، وَالذَّابِّينَ عَنْهَا، وَيَلْعَنُ مَنْ نَاصَرَهَا بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ.

ثانِيًا: ضَعْفُ الإِيمَانِ بِالثَّوَابِتِ الشَّرْعِيَّةِ.

لا يَكْفِي –عَبْدَ اللهِ– لِنَيْلِ العِزَّةِ وَالتَّمْكِينِ أَنْ تَعْرِفَ (أَنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً)، وَأَنَّ طَرِيقَهَا السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ حَتَّى **تُؤْمِنَ بِذَلِكَ إِيمَانًا يَبْعَثُ عَلَى العَمَلِ بِهَا**، فَتَرْضَى بِهَا، وَتَنْتَسِبَ إِلَيهَا، وَتُسَلِّمَ لِحُكْمِهَا، وَتُقَدِّمَهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَتَتَحَاكَمَ إِلَيْهَا، وَتَنْصُرَهَا بِالنَّفْسِ وَالمَالِ وَاللِّسَانِ وَاليَدِ.

فَإِبْلِيسُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ العِزَّةَ للهِ، وَأَقْسَمَ بِهَا: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، فَلَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ إِذْ خَلا قَلْبُهُ مِنَ الإِيمَانِ المُوْجِبِ لِلانْقِيَادِ لِأَحْكَامِهِ، وَالامْتِثَالِ لِأَوَامِرِهِ.

فَمِنْ عَلامَاتِ صِحَّةِ الإِيمَانِ وَقُوَّتِهِ (الرِّضَا بِالسُّنَّةِ) الَّتِي هِيَ (الإِسْلامُ المَحْضُ)، كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ–: "وَأَمَّا الرِّضَا بِدِينِهِ: فَإِذَا قَالَ أَوْ حَكَمَ أَوْ أَمَرَ أَوْ نَهَى: رَضِيَ كُلَّ الرِّضَا وَلَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهِ حَرَجٌ مِنْ حُكْمِهِ وَسَلَّمَ لَهُ تَسْلِيماً، وَلَوْ كَانَ مُخَالِفَاً لِمُرَادِ نَفْسِهِ أَوْ هَوَاهَا أَوْ قَوْلِ مُقَلِّدِهِ وَشَيْخِهِ وَطَائِفَتِهِ.

وَهَهُنَا يُوحِشُكَ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِلا الغَرَبَاءَ فِي العَالَمِ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَوْحِشَ مِن الاغْتِرَابِ وَالتَّفَرُّدِ فَإِنَّهُ وَاللّهِ (عَيْنُ العِزَّةِ)، (وَالصُّحْبَةُ مَعَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)، (وَرُوحُ الأُنْسِ بِهِ)، (وَالرِّضَا بِهِ رَبًّاً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالإِسْلامِ دِينَاً)"(مَدَارِجُ السَّالِكِينَ : ١٧٣/٢).

ثَالِثًا: ضَعْفُ الانْتِمَاءِ إِلَى الثَّوَابِتِ الشَّرْعِيَّةِ.

إِنَّ النَّتِيجَةَ البَدِيهِيَّةَ عِنْدَ عَدَمِ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ العِزَّةِ، وَعِنْدَ ضَعْفِ الإِيمَانِ هِيَ ضَعْفُ انْتِمَاءِ المَغْلُوبِ لِثَوَابِتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَقِيَمِهِ الأَخْلاقِيَّةِ، وَشُيُوعُ ثَقَافَةِ المُتَسَلِّطِ، وَقَنَاعَاتُهُ الفِكْرِيَّةِ.

وَصَمَّامُ أَمَانِ حِفْظِ الثَّوَابِتِ الشَّرْعِيَّةِ وَدَوَامِهَا هُوَ (الوَلاءُ، وَالبَرَاءُ)، فَهُوَ الأَثَرُ الطَّبِيعِيِّ لِصِدْقِ الانْتِمَاءِ.

فَالوَلاءُ للهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَتَضَمَّنُ:

١) صَحَّةَ الوَعْيِ وَالمَعْرِفَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

٢) وَقُوَّةَ الإِيمَانِ بِالشَّرِيعَةِ.

وَالبَرَاءُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ يَتَضَمَّنُ:

١) التَّحَصُّنَ عَنْ مَعَاوِلِ هَدْمِ الشَّخْصِيَّةِ المُسْلِمَةِ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: "... عَنْ مُجَاهِدٍ –رَحِمَهُ اللَّهُ– قَالَ:

"مَا أَدْرِي أَيُّ النِّعْمَتِينِ أَعْظَمُ؛ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ، أَوْ عَافَانِي مِنْ هَذِهِ الأَهْوَاءِ".

قُلْتُ: مِثْل الرَّفْضِ وَالقَدَرِ وَالتَّجَهُّمِ". (السِّيَرُ: ٤/٤٥٥).

وَ"كَانَ أَبُو العَالِيَةِ –رَحِمَهُ اللَّهُ– يَقُولُ: مَا أَدْرِي أَيُّ النِّعْمَتِينِ عَلَيَّ أَفْضَلُ: نِعْمَةَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ، وَنِعْمَةَ إِذْ لَمْ يَجْعَلْنِي حَرُورِيّاً" (شُعَبُ الإِيمَانِ لِلْبَيْهَقِيِّ: ٤/١٢١).

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: "لا عَيْبَ عَلَى مَنْ أَظْهَرَ مَذْهَبَ السَّلَفِ وانْتَسَبَ إِلَيْهِ وَاعْتَزَى إِلَيْهِ، بَلْ يَجِبُ قَبُولُ ذَلِكَ مِنْهُ بِالاتِّفَاقِ، فَإِنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ لا يَكُونُ إِلا حَقّاً" (مَجْمُوعُ الفَتَاوَى: ٤/١٤٩).

وَقَالَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: "صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ: هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ" (مَجْمُوعُ الفَتَاوَى: ٣/١٥٩).

وَأَخِيراً، وَلَيْسَ آخِراً: (**أَنَا سُنِّيٌّ أَوَّلاً**).

تَبْصِرَةٌ:

اعْلَمْ أَخِي الدَّاعِيَة إِلَى اللهِ –تَعَالَى– أَنَّ الأُمَّةَ اليَوْمَ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّذْكِيرِ بِالثَّوَابِتِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِيَتَعَلَّمَهَا جَاهِلُهُمْ، وَيَتَذَكَّرَهَا غَافِلُهُمْ.

(فَالصِّرَاعُ الدَّمَوِيُّ) فِي حَقِيقَتِهِ (صِرَاعٌ عَقَدِيٌّ) يَعْمَدُ إِلَى (إِحْكَامِ القَبْضَةِ) عَلَى (المُخَالِفِ) لِيَسْهُلَ تَرْوِيضُهُ عَلَى مَبَادِئِ المُتَغَلِّبِ وَأَفْكَارِهِ وَعَقَائِدِهِ.

(وَالدَّاعِيَةُ الحَكِيمُ) مَنْ يَعْمَلُ عَلَى تَشْيِيدِ الحَقِّ فِي قُلُوبِ الأُمَّةِ، وَيُؤَسِّس فِيهِمْ (مَعْرِفَةَ الحَقِّ)، (وَمَحَبَّتَهُ)، (وَالتَّضْحِيَةَ فِي سَبِيلِهِ).

حِكْمَةٌ:

قِيلَ لِلْحَقِّ: أَيْنَ كُنْتَ فِي صَوْلَةِ البَاطِلِ؟

قَالَ: كُنْتُ اجْتَثُّهُ مِنْ جُذُورِهِ.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِينِ

وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.